مجلة كلية
الدعوة الإسلامية
مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة
العدد الرابع
1987

- بين داعٍ ومبشّر
- نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام
- الألمان والقرآن
- بعض علماء النفس يعودون إلى رشدهم
- نصوص أجنبية مترجمة

نصوص مترجمة

مُلاحظات حَول دَوْر المدرسَة

في المجتمع الإسلامي في العصر الوسيط(*)

التحرير

كانت « المدرسة » من أهم النظم في الحضارة الإسلامية . وكانت أهميتها دينياً وتربوياً وسياسياً واجتماعياً تفوق أهمية النظم الإسلامية الأخرى ، مثل بيت الحكمة أو دار العلم (المكتبات)، ودار الحديث (حيث كان يدرّس الحديث الشريف) ، ودار القراءة (حيث كانت تدرّس تلاوة القرآن الكريم) ، والخانقاه (الزاوية) ، والرباط . والواقع أنه لم يفُقها أهمية إلا الجامع في تكوين العالم الإسلامي .

في هذه الدراسة ، سوف نتناول الأدوار المختلفة التي قامت بها المدرسة في المجتمع الإسلامي ، وبخاصة أدوارها غير الأكاديمية وغير السياسية . وهذه المظاهر ، على الرغم من قلّة المعرفة بها ـ إذ هي لم تحظَ إلا بالقليل من العناية من قبل الأوساط العلمية ـ فهي ذات أهمية لا يستهان بها . وسوف يتركّز البحث على

(*) Gary Leiser, «Notes on the Madrasa in Medieval Islamic Society,» in **The Muslim World**, Vol. 76, No.1, January 1986, pp.16-23.

العصر الوسيط ، أي من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر الميلاديين تقريباً ، إذ في هذه الفترة بلغت المدرسة غاية تطوّرها وأصبحت مظهراً مألوفاً في المجتمع الإسلامي .

إن مصطلح « المدرسة » يُترجم الآن عادة بكلمة كلية ، غير أن ما كان يُعرف بالمدرسة في العصر الوسيط يختلف كثيراً عن الكليات والجامعات الحديثة . كانت المدرسة معهداً تربوياً أنشىء خصيصاً لتدريس الفقه حسب مذهب أو أكثر من المذاهب السُّنية (وبشكل رئيسي ، المذهب المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي) . وكانت المدرسة تتمتع بوقف لتوفير منصب واحد لأستاذ واحد في الشريعة ولتوفير دخل لمدرّسين آخرين أو موظفين ومنح للطلبة ، بالإضافة إلى الأموال لصيانة المبنى . أضف إلى ذلك ، أن المدرسة كانت تضم أماكن لسكن الأستاذ وبعض تلاميذه ، على أقل تقدير . وكثيراً ما كانت تدرَّس مواضيع أخرى بالإضافة إلى الفقه ، غير أنه كان من المستحيل أن تكون هناك مدرسة دون أن يشكل الفقه المادة الرئيسية فيها . والواقع ، اشتقاقاً من الجذر الثلاثي « درس » ، كانت كلمة « الدرس » تعني تدريس الفقه ، والمدرّس هو الشخص الذي يدرّس الفقه ، والمدرسة هي المكان الذي يدرَّس فيه الفقه . أما اليوم فقد فقدت الكلمة معناها الأصلي الدقيق ، فهي لا تعني إلا معهد تدريس . وقد بدأ استعمال هذا المصطلح للدلالة على هذا المعنى العام في أواخر العصر الوسيط ، ومثال ذلك دار الحديث الشهيرة التي بناها السلطان الأيوبي الملك الكامل في القاهرة عام 1225 م ، والتي كان يشار إليها أحياناً بالمدرسة .

إن الجامع ، حيث كان الفقه يدرَّس أيضاً (حتى من قبل أستاذ يخصَّص له وقف وله طلبة بمنح) ، لم يكن مدرسة بالمعنى الكامل للمصطلح ، لأن وظيفته الرئيسية لم تكن تدريس الشريعة . كما أن الجامع كان ينقصه التسهيلات السكنية وبعض المظاهر الأخرى في المدارس . وسوف نقتصر في هذه الدراسة على تلك المعاهد التي تتطابق مع التعريف الذي ذكرناه سابقاً لمصطلح المدرسة .

ثمة بعض الشك حول منشأ المدرسة ، وهنالك عدة نظريات تَقدَّم بها عدد من المستشرقين . ففي عام 1927 م ، اقترح و. بارثولد أن فكرة المدرسة جاءت من

الأديرة البوذيّة (في اللغة السنسيكريتية « فيهارا ») في أواسط آسيا[1] . وقد ظهرت أولى المدارس في نيسابور ومرو وبخارى أثناء حكم السلطان محمود الغزنوي (999-1030 م) . ولعل اسم بخارى ذاته مستمدّ من « فيهارا » ، إذ كانت بخارى تحتوي في وقت ما على دير من هذا القبيل . وقد اقترح يوسف العش في وقت لاحق أن دُور العلم هي التي شجعت على إنشاء المدارس[2] . ويرى أحمد فكري أن المدرسة إن هي إلا امتداد منطقي لوظيفة الجامع[3] . ويعتقد جورج مقدسي أن المدرسة تطوّرت من الخانات حيث كان يقيم الطلبة أثناء دراستهم على أيدي أساتذة معروفين[4] . ولا يزال السؤال مفتوحاً حتى الآن ، لم يبتّ فيه .

تمّ تأسيس المدارس الأولى في الجزء الشرقي من العالم الإسلامي . وعلى الرغم من أنها ، على ما يبدو ، تدين ببدايتها للأسرة الغزنوية ، فإن أعظم رعاتها كانوا السلاجقة الذين هزموا الغزنويين في معركة داندافان عام 1040 م ، ثم شرعوا في فتح قلب الشرق الأوسط . فقد دخل قائدهم طغرلبك بغداد عام 1055 . وأثناء حكم ابن أخيه ألب أرسلان وحكم ملك شاه ، وصلت امبراطورية السلاجقة أكبر امتداد لها ، إذا امتدت من آسيا الوسطى إلى بيزنطية . وكان الوزير الأكبر لكلا الحاكمين هو نظام الملك الشهير . وتحت رعاية السلاجقة ساعد نظام الملك كثيراً في تشجيع انتشار المدارس عن طريق تأسيس مدرسة له في بغداد عام 1066 م . وشرع من ثم في بناء مدارس أخرى بمعظم المدن الكبرى في الامبراطورية . وكانت كل هذه المدارس تدعى بالمدارس النظامية . وفي القرن الحادي عشر ، أدخل الأمراء السلاجقة أيضاً فكرة المدرسة إلى بلاد الشام . إلا أن المدارس لم تحظَ بالمساندة الواسعة إلا في عهد نور الدين زنكي (توفي 1174 م) ، أثناء جهاده ضد الصليبيين

---

(1) W.Barthold, **Orta Asya Turk Tarihi Hakkinda Notlar,** Istanbul 1927, p.52.

(2) يوسف العش :

Les Bibliothèques arabes publiques et semipubliques en Mésopotamie, en Syrie et en Egypte au moyen age, Damasus 1967.

(3) أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها ، جزآن ، 1965-1969 .

(4) أنظر على سبيل المثال مقالته بعنوان :

«Interaction, Between Islam and the West,» **Revue des Études Islamiques,** Vol.44 (1976), p.291.

في منتصف القرن الثاني عشر[5] .

كانت مصر تخضع لحكم الفاطميين الشيعة من سنة 969 م إلى سنة 1171 م . ومن عاصمتهم في القاهرة ، سيطر الفاطميون أحياناً على جانب كبير من شمال أفريقيا وعلى أجزاء من بلاد الشام واليمن وحتى على جزيرة صقلية . ولكونهم شيعة ، لم تكن لديهم بالطبع حاجة إلى معهد سُنّي كالمدرسة . ومع ذلك ، فإن الأغلبية الساحقة من رعاياهم لم يعتنقوا المذهب الشيعي ، وعندما أفَل سلطانهم بدأت مدارس مستقلة في الظهور في مصر . وقد تم تأسيس أولاها في حدود عام 1100 م . وبعد سقوط الفاطميين انتشرت فكرة المدرسة عبر شمال أفريقيا[6] . وفي الأندلس أُسّست أقدم مدرسة معروفة في غرناطة عام 1349 م[7] . وموجز القول أن المدارس انتشرت بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر ، من الشرق إلى الغرب في العالم الإسلامي .

من المتفق عليه بشكل عام بين الباحثين أن المدارس تم تأسيسها لثلاثة أسباب رئيسية . أولاها تعزيز المذهب السُّنّي في مواجهة التحدّي الشيعي في القرن العاشر . إذ إن سيطرة الشيعة لم تقتصر على الفاطميين الذين حكموا مصر والجهات المجاورة لها فحسب ، بل إن البويهيين الذين كانوا شيعة أيضاً سيطروا من بغداد على جزء كبير من الأمبراطورية ، وكان الخليفة العباسي في قبضتهم . أضف

---

(5) Nikita Elisséeff, **Nur ad-Din: un grand prince musulman de Syrie au temps des croisades,** 3 vols., Damascus 1967, Vol. III, pp.913-935.

(6) Maya Shatzmiller, «Les prmiers Mérinides et le milieu religieux de fèx: l'introduction des Médersas,» **Studia Islamica,** 43 (1976), pp.109-118.

[يذكر ابن مرزوق التلمساني أن إنشاء المدارس كان غير معروف في المغرب إلى أيام السلطان المريني أبي الحسن علي (حكمَ 1331-1384 م) الذي أنشأ عدة مدارس في فاس وفي مختلف مدن المغربين الأقصى والأوسط . انظر ابن مرزوق التلمساني : المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ، الجزائر 1981 ، ص 405-406 ـ المترجمة] .

(7) G.Makdisi, «The Madrasa in Spain: Some Remarks,» **Revue de l'Occident Musulman et de la Mediterranée, 15-16 (1973), pp.153-8.**

[يقول ابن الخطيب أن الحاجب رضوان النصري هو الذي « أحدث المدرسة بغرناطة . . . وسبّب إليها الفوائد ووقف عليها الرباع المغلّة . . . فجاءت نسيجة وحدها بهجة وصدراً وظرفاً وفخامة » . انظر ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، القاهرة 1973 ، 1 / ص 508-509 المترجمة] .

إلى ذلك أن دعاة الشيعة نشطوا في جميع أنحاء أرض الإسلام وكانت لهم معاهد كثيرة مثل الجامع الأزهر الشهير في القاهرة ، والعديد من دور العلم ، حيث كانوا يتلقّون نوعاً خاصاً من التدريب . وقد رأى محمود الغزنوي ـ الذي يمكن اعتباره رائد المدافعين عن السنّة في حينه ـ في المدرسة نظاماً يمكن عن طريقه إحياء وتعزيز ونشر الشريعة السُّنية ، كما رأى فيها وسيلة فعّالة لإحباط الخطر الشيعي . وقد طبّق السلاجقة فيما بعد على نطاق واسع هذه السابقة التي اتخذها السلطان محمود ، وذلك في عهد الوزير نظام الملك حينما اجتاحوا الشرق الأوسط وأطاحوا بالبويهيين وطردوا الفاطميين من بلاد الشام . وأمّا حماة السُّنة الجدد ، فقد شكّلت المدرسة لديهم أداة عقائدية رئيسية لاجتثاث الشيعة .

ومما أدى أيضاً إلى تأسيس المدارس الحاجةُ لخلق جهاز إداري مخلص للإدارة الجديدة . فالذين تلقّوا تعليمهم في المدارس لم يصبحوا موظفين دينيين (مفتين ، أئمة ، الخ) فحسب ، بل كثيراً ما كانوا يصبحون قضاة ووزراء وموظفي دولة من كل نوع . وبعبارة أخرى كانت هذه المدارس تدرّب موظفين مهرة يؤثرون على المجتمع أو يحكمونه . وكان السلاطين ، عندما يختارون موظفي حكومتهم من أولئك الذين تعلموا في المدارس ، يضمنون إخلاصهم والتزامهم للمذهب السني بالإضافة الى مهارتهم العملية .

وثمة سبب ثالث لتأسيس المدارس ، ألا وهو رغبة السلطات الحاكمة في الهيمنة إلى حدّ كبير على نخبة رجال الدين . فمثلاً ، شرع السلطان صلاح الدين ، المجاهد الكبير ضد الصليبيين ، في إنشاء المدارس بصورة جدّية بمجرد انتزاعه السلطة من الأسرة الفاطمية والإحاطة بها عام 1171 م[8] . ومن المعلوم أن المذهب الشيعي في ذلك الحين كان قد ضعف كثيراً في مصر نتيجة للانقسامات العقائدية والأسرية الداخلية ـ ناهيك عن هجمات السلاجقة ومن جاء بعدهم ـ بحيث لم يعد يشكل تحدّياً للمذهب السني في مصر . والواقع أنه ، في السنوات الأخيرة من الحكم الفاطمي ، كان جانب كبير من مناصب الدولة يشغله بشكل خاص أفراد من غير الشيعة ، لا بل إن بعض الوزراء كانوا ينتمون إلى المذهب السني ، مثل صلاح الدين ، وسرعان ما تلاشى المذهب الشيعي في مصر بعد

---

(8) C.E.Bosworth, **The Ghaznavids**, Beirut 1973, pp. 175-185.

وصول صلاح الدين إليها بفترة وجيزة . وهكذا ، على الرغم من أن الشيعة كانوا يمثلون في أحسن الأحوال خطراً يسيراً على صلاح الدين ، وعلى الرغم من توفّر مجموعة كبيرة من موظفي الدولة السُّنيين الذين أمكن الاعتماد عليهم ، فإن صلاح الدين استمرّ في تأسيس المدارس لأنه ، على ما يبدو ، لم يثق بالجماعة السُّنية المحلية التي يظهر أنه اشتبه فيها بسبب علاقتها بالشيعة ، واستمرّ خلفاء صلاح الدين في هذا النّهج .

إن معظم الأساتذة الذين عُيِّنوا في المدارس التي أُنشئت في مصر كانوا من بلاد الشام والعراق وإيران ، لا من مصر . وقد تلقّى كثير منهم التدريب في المدارس التي كان قد أنشأها نظام الملك . وكان هؤلاء « الأغراب » يقبضون مرتبات معتبرة ، كما أن المنح الدراسية كانت تجتذب أفضل الطلبة إلى مصر . وفيما بعد ، حلّ هؤلاء الطلبة محل « الأغراب » . ومع قيام السلطات الحاكمة بتعيين الأساتذة وانتقاء الطلبة ، فإنها اكتسبت بصورة فعلية ولاء جزء كبير من رجال الدين .

وقد قام نظام الوقف بدور رئيسي في هذه العملية . فالشخص الذي كان يقف مالاً لإنشاء مدرسة أو أي معهد آخر كان يحق له أن يضع ما يرتئيه من قيود أو شروط فيما يتعلّق باستعمال المعهد . وكانت مثل هذه القيود أو الشروط ملزمة قانونياً إلى الأبد . وكانت لوائح الوقف مفصلة جداً في كثير من الأحيان ـ يرد فيها ذكر مرتّبات المدرّسين ، والمنح الدراسية للطلبة ، ونفقات الصيانة ، والورق والحبر ، والخبز والماء ، وحتى البسط للنوم . وغنيّ عن القول أن صاحب الوقف كان بإمكانه أن يحدّد من يمكنه أن يدرّس وماذا يمكن تدريسه . فمثلاً ، في الوقف الخاص بالمدرسة النظامية ببغداد ، لم يُشترط أن يكون مدرّسو الفقه من أصحاب المذهب الشافعي فحسب بل كان ذلك يسري أيضاً على مدرّسي النحو ، وربما أيضاً على مدرّسي المواد الأخرى[9] . ومن ناحية أخرى ، كان قطب الدين محمد ، سليل عماد الدين زنكي الشهير ، يمقت الشافعية ، ولما تولّى الحكم في سِنجار في الشمال الغربي من العراق (1197 م) ، بنى مدرسة للحنفيّة واشترط أن يكون المشرف أحد أولاده ، مع إبعاد الشافعية منهم ، وأن يكون حتى البواب والحارس

(9) ابن القفطي : إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القاهرة ، أربعة أجزاء ، 1950-1973 ، 3 / ص 255 .

من الحنفيّة[10] . وفي مصر ، اشترط صلاح الدين في أوقاف كل مدارسه أن تكون العقيدة الأشعرية هي السائدة فيها[11] .

بالإضافة إلى أدوار المدرسة المعروفة ، كانت المدرسة أيضاً تقوم بمهام أخرى ذات أهمية لتوحيد السنّة وتعزيزها والتحامها. فقد كانت إحدى وظائفها استعمالها نزلاً للمسافرين . يُذكَر ذلك صراحة في مرسوم صادر عام 532 هـ / 1137-1138 م عن الخليفة الفاطمي الحافظ ـ الذي كان في الواقع أداة في يد الوزير السنّي ـ لتأسيس المدرسة الحافظية في الاسكندرية . يذكر المرسوم أن الأمر بإنشاء هذا المبنى جاء لأسباب من ضمنها أن الاسكندرية كانت تعجّ بالطلبة المحليين والأجانب وبالزوار الذين لا يملكون مأوى يلجأون إليه .

ولما انتهى إلى أمير المؤمنين . . . أن طالبي العلم من أهله ومن الواردين إليه والطارئين عليه مشتّتو الشمل ، متفرّقو الجمع ، أبى أمير المؤمنين أن يكونوا حائرين متلدّدين ، ولم يرضَ لهم أن يبقَوا مُذبذَبين مُتبدِّدين ، وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية[12] .

بالإضافة إلى الطلبة الذين كانت تصرف لهم منح دراسية ، كانت المدارس في العادة مفتوحة لكل من رغب في زيارة المدرسة وسماع الدروس . وإذا كان الأستاذ مشهوراً بشكل خاص ، فلربما اجتذب العشرات من الأشخاص الذين لم يكونوا طلاباً منتظمين عنده بل قدموا رغبة منهم في مقابلته أو سماع بعض الدروس . أضف إلى ذلك أنه ، نظراً لتوفّر الأماكن السكنيّة في المدارس ، فقد كان من السهل إيواء الزوار لفترات قصيرة .

وإذا ما تركنا جانباً الطلبة المتجوّلين الذين كانوايشكلون ظاهرة مألوفة إلى حدّ كبير في العالم الإسلامي ، كان الزوار في معظمهم من التجار والحجاج . ففي المعاجم التي بقيت لنا حول تراجم أعلام مذاهب السنّة المختلفة ، يمكن الاهتداء إلى أسماء التجار الذين التحقوا بالمدارس أو نزلوا فيها وهم يزاولون أعمالهم . وعلى

---

(10) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ثمانية أجزاء ، بيروت 1968 ، 2 / ص 331 .

(11) المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، ط. بولاق 1853 ، 2 / ص 343 .

(12) القلقشندي : صبح الأعشى ، القاهرة 1972 ، 10 / ص 458-459 .

جمال الدين الشيّال : أعلام الاسكندرية في العصر الإسلامي ، القاهرة 1965 ، ص 126-127 .

سبيل المثال ، فإن أبا محمد عبد الله بن عبد الجبار القرشي ، المولود في الاسكندرية عام 1150 م ، كان تاجر أقمشة ، وكان عضواً في مجموعة عرفت بتجار الكارم ركّزت نشاطها بشكل خاص على التجارة بين مصر والهند . كان أبو محمد أحياناً يحضر الدروس في المدرسة الحافظية[13] . وجدير بالذكر أن أقدم المدارس وبعضاً من أهمها في مصر كانت تقع في الاسكندرية والفسطاط وقوص ، وهي الموانىء التجارية الرئيسية . ويمكن للمرء أن يرى أنّ المدارس كانت أماكن مناسبة لاستراحة التجار وهم في طريقهم ، إذ هي تتيح لهم فرصاً للأعمال بالإضافة إلى ما توفّره من مأوى وتنشيط ذهني . وعلاوة على ذلك فإنه إذا جدّ مشكل حول بعض الصفقات التجارية ، كان الحلّ سهل المنال ، وذلك بالرجوع إلى رجل حجّة في الشريعة هو أستاذ المدرسة الذي كثيراً ما يكون أيضاً قاضياً أو مُفتياً .

إن طرق التجارة وطرق الحج كثيراً ما كانت هي الطرق نفسها . والمدارس الكائنة على مثل هذه الطرق كانت بالطبع تجتذب الحجاج بالإضافة إلى التجار الأمر الذي سهّل جمع المهمَّتين . وبما أن الحجاج كانوا ينزعون إلى دراسة الفقه أو غير ذلك من العلوم الدينية في طريقهم إلى أماكن الحج ، فإن المدارس المناسبة كانت أماكن مثالية للتوقّف عندها . وهذا ينطبق بشكل خاص على طريق الحج إلى مكة المكرّمة . فالحجاج الأندلسيون والمغاربة كانوا يسيرون بمحاذاة نهر النيل من الاسكندرية إلى قوص ومنها يتجهون برّاً إلى عَيذاب على ساحل البحر الأحمر ، ومن ثم يركبون القوارب إلى جدّة . ولعل أقدم مدرسة معروفة في مصر هي المدرسة التي أنشأها ابو بكر محمد بن الوليد الطُرطوشي . كان الطرطوشي أندلسي الموطن ثم زار مكة المكرّمة وذهب إلى بغداد حيث تأثر بالمدرسة النظامية . وفيما بعد استقرّ في الاسكندرية وحوّل منزله في حدود عام 1100 م إلى مدرسة سرعان ما أصبحت مناراً للمسلمين المغاربة في طريقهم إلى مكة المكرمة وغيرها من المدن في الشرق . وكثيراً ما كان الرحالة المسلم الشهير ابن بطوطة ـ وهو من أبناء المغرب ـ ينزل في المدارس أثناء رحلاته . فهو يذكر مثلاً أنه عندما كان في دمياط ،

---

(13) المُنذري : التكملة لوفيات النقَلة ، النجف 1971 ، 4 / ص 305-306 . عن تجار الكارم ، انظر صبحي لبيب ، مادة «Karimi»، دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الثانية باللغة الانجليزية ، 4 / ص 640-643 .

أقام في مدرسة وهو في طريقه إلى الأماكن المقدسة في حدود عام 727 هـ / 1326-1327 م[14] .

وثمة مدرسة واحدة على الأقل في مصر أُسِّست على ما يبدو لغرض رئيسي هو توفير احتياجات الحجاج . ويذكر المؤرخ المصري المقريزي ، الذي عاش في القرن الخامس عشر الميلادي ، أن سكان بلاد التكرور قدَّموا إلى القاضي علم الدين ابن رشيق المال لبناء مدرسة في الفسطاط عندما توقّفوا هناك في طريقهم إلى مكة المكرّمة حوالي عام 640 هـ / 1242-1243 م[15] . وكانت بلاد التكرور - وهي إقليم يقع في حوض نهر السنغال في غرب أفريقيا - مصدراً رئيسياً للذهب بالنسبة لمصر ، وقامت بين البلدين تجارة نشطة[16] . وبالإضافة إلى استعمال هذه المدرسة محطة في طريق الحجاج من بلاد التكرور ، فإنها دون شك كانت مكاناً يجتمع فيه التجار . ولعل دور المدرسة هذا في توفير المبيت للتجار والحجاج يدعم النظرية القائلة بأن المدارس نشأت عن الخانات .

ويبدو أيضاً أن المدارس قامت بدور من أدوار المحكمة الشرعية . فنظراً لأن كثيرين من الأساتذة كانوا - كما سبق أن ذكرنا - قضاة أو مُفتين ، فإن لم يكن من المستغرب أن يجلسوا للقضاء في مدارسهم . فالأساتذة في المدرسة الصالحية ، التي أُسست عام 641 هـ / 1243-1244 م ، في القاهرة ، كان أغلبهم من كبار القضاة يفصلون في القضايا تبعاً لمذاهبهم المختلفة في جميع أنحاء مصر في العهد الأيوبي . والواقع أن المدرسة الصالحية أصبحت مقراً لمحكمة مهمة في العهد العثماني ، إن لم يكن قبل عهدهم[17] . ومما يتّصل بذلك أن المدارس كانت ، على ما يبدو ، أماكن

---

(14) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، بيروت 1968 ، ص 30-31 .

(15) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، 1 / ص 194 .

[الصحيح أن مدرسة ابن رشيق في القاهرة أسسها سلطان كانم دونما ديبالامي (حكم 1210-1248 م) في العقد الخامس من القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي لإيواء طلبة كانم الدارسين في القاهرة . انظر المقريزي : خطط ، القاهرة 1922 ، 2/3 ص 266 - المترجمة] .

(16) عن بلاد التكرور انظر حسنين ربيع :

The Financial System of Egypt A.H. 564-741/A.D. 1169-1341, London 1972, p.191.

[مما يذكر أن المؤرخين المشارقة استعملوا - خطأ - التسمية « بلاد التكرور » لتشمل السودانين الغربي والأوسط ، في حين أن التسمية تعني - على وجه التحديد - بلاد السنغال في حوض نهر السنغال بغرب أفريقيا - المترجمة] .

(17) سلوى علي إبراهيم ميلاد : =

مثالية لإبرام عقود الزواج ، فضلاً عن إصدار الفتاوي . ويشير المؤرخ أبو شامة الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي إلى رجل مسئول عن إبرام عقود الزواج في المدرسة النَّفَوية لعام 615 هـ / 1218-1219 م[18] . ويبدو أن هذه كانت إحدى المدارس التي أنشأها تقيّ الدين عمر ، ابن أخي صلاح الدين ، في بلاد الشام . ويذكر أبو شامة رجلاً آخر عُيّن في السنة ذاتها لنفس المنصب في المدرسة العزيزية في دمشق[19] . (من الصعب القول ما إذا كانت النساء يشهدن إبرام مثل هذه العقود) .

ثمة وجه آخر لدور المدرسة ينبغي تأكيده وهو دورها الاقتصادي . فإن مدرسة كبيرة مع ما يتبعها من أساتذة وطلبة لا بدّ أن يكون لها أثر اقتصادي لا يستهان به على الاقتصاد المحلي . وقد وصف الرحالة الأندلسي ابن جبير المدرسة الصلاحية ، التي بناها السلطان صلاح الدين عام 1180 م في القاهرة ، بأن الزائر إليها يحسبها مدينة قائمة بذاتها[20]. كان المرتّب الذي يتقاضاه أستاذها أعلى مرتّب في أية مدرسة بمصر في العصر الوسيط . ومع أننا نجهل عدد الموظفين والطلاب فيها ، فإن الوقف كان يضم حماماً وفرناً وشارعاً من الحوانيت وجزيرة في نهر النيل . أما المدرسة الظاهرية في دمشق ، التي أنشئت للسلطان المملوكي الظاهر بيبرس بعد وفاته عام 1277 م ، فإنها كانت تضم نحو 141 شخصاً بين مدرّس وموظف وطالب، وكانت نفقاتها الشهرية تزيد على 3000 درهم (كان الشخص الواحد يعيش بسهولة على ثلاثين درهماً لمدة شهر) . وكان الوقف يضم عدة قرى أو أجزاء من قرى وبساتين ودكاناً وطاحونة وحماماً وكرم عنب ونُزُلاً[21] .

وقد فاقها حجماً مُجَمَّعٌ ضمّ جامعاً ومدرسة أسسه السلطان المملوكي برسباي في القاهرة عام 1423 م . كان المجمَّع يضم 157 شخصاً بين مدرّس وموظف

«Registres judiciares de tribunal de la Salihiyya Nagmiyya,» **Annales Islamogiques,** = 12 (1974), pp.161-243.

(18) أبو شامة : الذيل على الروضتين ، القاهرة 1947 ، ص 112 .

(19) المصدر السابق ، ص 149 .

(20) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، بيروت 1964 ، ص 22-23 .

المقريزي : المواعظ والاعتبار ، 2 / ص 400-401 .

(21) Leiser, G., «The Endowment of the Zahiriyya in Damascus,» **Journal of the Economic and Social History of the Orient,** 27 (1984), pp.33-35.

وطالب ، وكانت نفقاته الشهرية تتجاوز 3500 درهم[22] .

وهكذا ، فإن المدارس ولّدت مداخيل كبيرة نوعاً ما في المناطق التي تقع فيها . وكالمصانع الصغيرة ، كانت المدارس تستخدم مباشرة عدداً كبيراً من الأفراد ـ مع أنهم لم يكونوا منتجين لأية سلعة . ولعلّه لم تكن ثمة إلا قلّة من الصناعات الحقة كانت تستخدم مثل هذا العدد من الأشخاص الذي كانت تستخدمه المدارس . أضف إلى ذلك أن المدارس كانت تستخدم بشكل غير مباشر عشرات من الناس غيرهم . فالطلبة والمدرسون كانوا يشكلون سوقاً جاهزة للوراقين وصانعي الحبر وبائعي الأقمشة والملابس والحلاقين والخبازين وبائعي المصابيح والزيت ، الخ . كما أن بناء المبنى وصيانته كانا يحتاجان إلى مهارات الحرفيّين وغيرهم من العمال . وفي حالة وجود عدد كبير من المدارس في مدينة ما ، فإن « مهنة التدريس » فيها قد يكون لها أثر لا يستهان به على الاقتصاد . أضف إلى ذلك أنه ، إذا حظيت المدرسة بأستاذ مشهور فإنه قد يجتذب طلبة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، وهؤلاء بالطبع يجلبون معهم « العملات السياحية » . كان الوضع ذاته ينطبق على التجار والحجاج الذين يزورون المدارس . وعندما شُرع في ضم أضرحة الأولياء إلى المدارس ، كضريح الإمام الشافعي ذاته في المدرسة الصلاحية ، فإن الأثر الاقتصادي للمدرسة زاد أضعافاً .

لا عجب إذن أن نجد الناس يرحبون كثيراً بانشاء المدارس في مدنهم أو بجوارها ، ذلك لأن المدرسة كانت تُنمي إمكانياتهم الاقتصادية ، بالإضافة إلى ما توفره من فرص التعليم وما لها من هيبة واعتبار . فعندما كان شخص من النخبة الحاكمة مثلاً يقوم بانشاء مدرسة ، كان لا يؤكد رعايته على طبقة رجال الدين فحسب بل ربما اكتسب كذلك رضا التجار .

وأخيراً ، يبدو أن المدرسة ساعدت في دمج المجتمع الإسلامي ، فالمدرسة أتاحت الفرصة أمام أي مسلم سُنّي ، بغض النظر عن إمكانياته المادية وخلفيّته العِرقية أو اللغوية ، كي يتلقى دراسة عليا . وهذا بالطبع كان يهيّىء له فرصاً مهنيّة واقتصادية عديدة . إن وقف المدرسة قد يحدّد المذهب الذي يدرَّس فيها ، إلا أنه لم تكن هنالك أبداً أية قيود أو تفرقة على أساس الثروة أو الأصل أو اللغة .

---

(22) أحمد درّاج : حُجّة وقف برسباي ، القاهرة 1968 .

كانت المنح الدراسية تضمن انفتاح المدرسة للجميع ، بحيث كانت تتوفر الفرصة لابن فلاح من قرية نائية في الصعيد للذهاب إلى القاهرة أو بغداد أو أية مدرسة كي يتدرب فيها ليصبح قاضياً أو موظفاً . ونتيجة لذلك ، فإن المدرسة مكّنت من إيجاد « حركة إلى أعلى » بين جميع الطبقات في المجتمع الإسلامي وعزّزت فكرة التساوي بين جميع المسلمين وساهمت مساهمة ذات بال في دمج المجتمع الإسلامي بسبب اجتذابها للطلبة من مختلف الخلفيات وتلقينهم أصول العلوم الدينية .

وكما هي الحال اليوم ، فمكانة المعلم وفرص العمل المفتوحة أمامه تقوم بشكل رئيسي على الكتب التي يؤلفها وعلى شهرة مُدرِّسيه . وكذلك كان وضع المناصب المهنيّة الأخرى كمنصب القاضي أو المفتي . وكانت أهمية الحصول على أحسن الأساتذة ، ومن ثم أكثرهم شهرة في العادة ، يدفع بالطلبة إلى التنقّل من مدرسة إلى أخرى ، فكانوا يسافرون بعيداً في العالم الإسلامي ، ونجدهم أحياناً يسافرون من الأندلس إلى الصين. وهذا بدون شك زاد من تقارب المسلمين ومكّنهم من التعرف على آخر القضايا السياسية والفقهية وساهم في الوصول إلى الإجماع فيما يتعلق بمبادىء الإسلام الأساسية . وعلى ذلك ، ينبغي أن لا يُستهان بدور المدرسة في خلق مفهوم « العالم الإسلامي » .

وباختصار ، يمكن القول بأن المدرسة لم تقُم فقط بتعزيز المذهب السنّي ، وبتدريب موظفي الدولة ورجال الدين ، وبمساعدة الحكام على ضمان طاعة طبقة رجال الدين ، بل إنها أيضاً قامت بدور نزل للتجار والحجاج وغيرهم من المسافرين ، كما أنها كانت مقراً للمحاكم الشرعية ، ووفّرت الأعمال والفرص التجارية ، وساهمت في خلق المجتمع الإسلامي ودمجه معاً .